واحس ان تلك الطريق التي قطعها آلاف المرات من « دورا » الى خربته تنادي عليه... وما اكثر ما كان يخيل اليه ، انه يسمع صوت شبابة « أبو علي » راعي الغنم ... وانه ينادي عليه ... من خلال ذلك الانين الطويل الذي ينطلق فيها ... كانت الشبابة المثقوبة ، تشبه الصدر العنق المثقوب برصاص الاحتلال .

وقطع باجس ابو عطوان النهر ... ومضى ... لقد مرت مياه كثيرة تحت الجسر ... تبدل وجه الحرس وتبدل وجه الاحتلال ... وتغيرت الراية ...

● ●

حينما وصل الى الخربة ، احس ان كل شيء قد تغير ... حتى الهواء اصبحت له رائحة اخرى ... واصبح ثقيلا كالرصاص ... وحتى والده ... صار لصوته رائحة أخرى ... الهواء والارض والاصوات ... ووجوه الفلاحين ... والطريق ... والجبال ... والنجوم وكل شيء ... كل شيء ...

كان الظلام كثيفا ، يكاد يقطع بالسكين ... ولم تكن تخترقه ... غير ومضات زخات من الرصاص ، تطلقها تلك الايدي الفلسطينية بين فترة واخرى ...

ما اكثر الاسئلة التي كان يريد ان يطرح على والده ؛ وعلى « أبو علي » ، راعي الغنم ، وعلى الفلاحين ايضا ... ولكنه لم يكن يتلقى غير القليل من الاجوبة ... فالناس في سنوات الاحتلال لا يتكلمون كثيرا ...

وسيأتي يوم يصبح فيه باجس أبو عطوان ، يتكلم من يده ... ان الايدي لا بد وان تخترع لغتها الخاصة ...

● ●

ما الذي على باجس ابو عطوان ان يفعله الان ...؟ ان العمل الى جانب ابيه في المقهى ، لم يعد يقنعه ، كان يعاوده الاحساس بأن يده قد كبرت كثيرا ، واصبحت اكبر من صينية الشاي والقهوة ...

فما الذي عليه ان يفعله ... انه يعرف ، كل تلك المنطقة بسلاسل جبالها ... بخربها وقراها ... بمسالكها ... وكهوفها ... كما يعرف خطوط كفيه ... واهم من ذلك كله ، كان يعرف جيدا ذلك الهواء الذي يتنفسه الفلاحون ... أيام الزرع وأيام القلع ...

لقد عرفت الخربة كلها ، انه سجن ، عرفوا بقصة تلك البرقية التي ارسلها للملك ... وما اكثر ما كان يسأله الفلاحون :

ـــ هل حقا ارسلت تلك البرقية للملك ...؟

وكان باجس يحس بومضات الاعتزاز تلمع في عيونهم ... فها هوذا شاب صغير من خربتهم ، يرسل برقية للملك ... وبرقية احتجاج ... وانه قد سجن من أجلها وطرد من الجيش ...

● ●

حينما يسترجع باجس ابو عطوان أيامه ولياليه في تلك الزنزانة ، في سجن الزرقا ، حينما كان يسترجع ذلك الباب الحديدي المغلق عليه ، وتلك العين المغروسة في الباب ، والتي يطل منها الحرس عليه ... والجدران الاربعة المغلقة فوقه ... كان الالم يعود الى قدميه ... فالقدم التي تعودت على قطع الكيلو مترات الطويلة كل يوم ... لا بد